كنف الشيوخ المكفوفين من أمثاله ، ذلك لأن صوتها يبعث الدعارة والشهوة وشنيع الأفعال .

ودخل هجاء الأعراض على يد ابن الحجاج العراقى وابن سكّرة الهاشمى وابن بسام البغدادى باباً لم يدخله من قبل ؛ فقد أوغل هؤلاء فى الألفاظ والتعابير ، وأسفّوا فى المعانى المنحطة السافلة حتى لتمجّ النفس من سماع صورهم وتشبيهاتهم وأغراضهم فى النساء ، فقد يُقبل أحدهم على أمه فينال منها ما ينال الغريب من الخليلة ، وينتهى إلى وصف ذلك وصفاً فاحشاً ، لا تستقر العينُ على سطوره لكثرة ما يثير فى الشعور من ألم الانحطاط ووحشية العمل . وفى كتب الأدب — وأسفاه — كثيرٌ من شعرهم ، أوردت « اليتيمة » كومةً مخيفة منه ، ما نجيزُ رواية بيت واحد منها . وفى دواوينهم المخطوطة شعر يشيب له الطفل وتكذبه الأذن ، وتأباه اللغة العربية ، وينكره حتى أبعد المنحطين فى الأخلاق فلا يرضونه لعشيقاتهم أو خليلاتهم المتاجرات بالحب . ولعلّ هذا الشعر ساق الشعراء بعدهم إلى الرضى عن مثل هذه الألوان فاستخفّوا ظلّها فى قصائدهم ، وطرقوها فى هجائهم ، فكان لابن عنين فى هذا الفنّ تعرّض للنساء ورسم لما يقع منهنّ فى ألفاظ واقعية ، ومفردات واضحة ، لا يتكلف إليها الإشارة وإنما يستسهل إيراد العبارة ، كأنه كتب الديوانَ لنفسه لا للناس ، فهو يقول فى ابن عساكر يهجوه :

يَا ابن الدّجاجة كلُّ الناس كان لها ديكاً فأنت ابنُ مَنْ حتى أناديكا؟

ونحب أن نقف عند هذه الدجاجة فى التعبير عن المرأة السافلة الداعرة ، لأنه تعبير تلقفته اللغات الأجنبية فرمت به أمثال هذه من النساء حين يتصدين للرجال فى زوايا الشوارع المظلمة يبغين على حبهن أجراً ، ويستبدلن كلّ ساعة ديكاً جديداً . فابن عنين رمى هدفه كما يرمى الغربيون ليطعن فى نسب عدوه وايرمى أمه بالفجور والتقلب فى أحضان الرجال .

ويقول الشاعر كذلك فى هجاء ابن القلانسى :

ولكننى إنْ رمتُ إتيانَ عرسه « تمتّعْتُ من لهو بها غير مُعْجِلِ »
وكَمْ ليلة قَدْ بتُّ جذلان بيْنهُ «وبينَ هضيم الكشْح ريّا المخلْخَل»